مجلة روز اليوسف ، ٣٠ سبتمبر ٢٠٠٦
العنوان :

كورنيليس هولسمان الخبير الهولندى فى حوار الثقافات
يكتب لروز اليوسف
الحقيقة الغائبة فى فتنة بنديكت
البابا طرح ملاحظات إيجابية عن الإسلام – لكنها ضاعت فى مناخ ملبد بالشك قابل للإشتعال

الكاتب : كورنيلس هولسمان

<u>كاتب هذا المقال</u>

كورنيليس هولسمان هو عالم اجتماع هولندى وهو مدير مركز التقارب بين الثقافات والترجمة (CIDT: www.cawu.org) ورئيس تحرير المجلة الإلكترونية Arab-West Report، وأحد مؤسسى مركز التفاهم بين العرب والغرب، وهى جمعية أهلية مصرية تحت التأسيس، والأمين العام لجمعية المراسلين الأجانب، ومراسل لعدد من وسائل الإعلام الهولندى بما فى ذلك مطبوعة أسبوعية كاثوليكية كبرى فى هولندا. وهو من أقدم أعضاء لجنة الشرق الأوسط بالحزب الديموقراطى المسيحى الهولندى. ويعيش هولسمان فى مصر التى جاءها لأول مرة عام ١٩٧٦، وهو ينتمى إلى الكنيسة القبطية الأرثوذكسية. وينبغى الإشارة هنا إلى أن هذه المقالة تعبر عن آرائه الشخصية.

أثارت محاضرة البابا بنديكت التى ألقاها فى ١٢ سبتمبر جدلاً واسعاً فى العالم الإسلامى بسبب ملاحظات غير موفقة بالمرة، من جانب البابا، تتصل بكتاب لتيودور خورى، وهو أستاذ ألمانى من أصل لبنانى، حول حوار بين الإمبراطور البيزنطى مانيويل الثانى باليولوجوس وفارسى مسلم متعلم غير معروف الاسم حوالى ١٣٩١ ميلادياً.

وأهم مشكلة هنا هى إنتزاع الملاحظات من سياقها بحيث أصبح بوسع المستمعين أو القراء أن يطرحوا تفسيرات ربما لم تكن مقصودة. فالبابا كان يبدى ملاحظاته على حوار دار فى القرن الرابع عشر بدون أن يضع لها الإطار المناسب، ووسائل الإعلام المختلفة كانت تبرز ما اقتطفه البابا فى تصريحات مستفزة للغاية أدلى بها الإمبراطور البيزنطى، دون إلتفات إلى الأشياء الإيجابية التى قالها البابا فى المحاضرة وفى مواضع أخرى حول الحاجة إلى الحوار بين الحضارات.

وهذا المقال لن يكتفى بتلخيص المحاضرة، ولكنه سيقدم أيضاً الخلفية التى غابت عن مختلف التقارير والتعليقات.

توجهت محاضرة البابا بنديكت، بالأساس، إلى جمهور أكاديمى غربى متأثر تأثراً قوياً بالفلسفة الوضعية الغربية التى نقلت الإيمان إلى منطقة المعتقدات الشخصية وعزلته بذلك عن العلم وعن التأثير المتبادل بين (مع) العوامل الرياضية والتجريبية (الإمبريقية). والبابا ينتقد الفلسفة الوضعية الغربية إنتقاداً شديداً لإستبعادها مسألة الألوهية مختزلة بذلك مجال العلم والعقل. وسوف يوافق غالبية علماء المسلمين على هذا الموقف. فهُم، أيضاً، يواجهون التأثير القوى للفلسفة الوضعية الغربية فى معظم الحقول العلمية التى يشتغلون بها.

ومن الواضح أن البابا بنديكت أشار إلى الإمبراطور البيزنطى الذى عاش فى القرن الرابع عشر بخصوص قوله "إن مجافاة العقل ومجافاة المنطق مناقضات لطبيعة الله" وليس بخصوص الإشارة

المستفزة وغير العادلة إلى الإسلام. فمحاضرة البابا تؤكد بوضوح أنه يدعو للحوار مع الإسلام. بل إن البابا بنديكت يشير إلى "موضوع المسيحية والإسلام وصدق الديانتين". وصيغة "صدق الديانتين" بالغة الدلالة. ولسوء الحظ لا تتردد كثيراً فى الدوائر المسيحية. وهنا يقرر البابا بوضوح أن كلاً من المسيحية والإسلام ينطويان على حقيقة وهو ما يتوافق مع توجه المجمع الفاتيكانى الثانى المسكونى، وهو تجمع المطارنة الكاثوليك من كافة أنحاء العالم (١٩٦٢- ١٩٦٥) الذى حضره البابا عندما كان عالم لاهوت شاباً. وقد أعلن المجمع رسمياً أن "المسلمين، الذين يعلنون تمسكهم بإيمان إبراهيم، يعبدون معنا الإله الأوحد الرحيم" (الدستور العقائدى للكنائس Lumen Gentium رقم ١٦).
والإعلان الخاص "بعلاقة الكنيسة بالديانات غير المسيحية" (الذى يشار إليه بأنه Nostra Aetate, nr 2) ويقول: "والكنيسة الكاثوليكية، لا تنبذ شيئاً مما هو حق ومقدس فى هذه الديانات، وبإحترام صادق، تقدر مبادىء العمل والحياة والتعاليم، تلك التى تحمل قبساً من شعاع الحقيقة التى تنير جميع الناس وإن اختلفت فى أمور كثيرة مع ما تقول به وتعلمه هذه الديانات.

والقادة المسيحيون الذين يمكن أن يقروا بأن كلاً من المسيحية والإسلام ينطويان على حقيقة ليسوا كُثر. ويعتبر الأب الدكتور كريستيان فان نسبن، وهو كاهن يسوعى يعيش فى مصر منذ عام ١٩٦٢ وله كتاب رائع عن الحوار بين المسلمين والمسيحيين بعنوان (مسيحيون ومسلمون إخوة أمام الله)، أن هذه الصياغة التى يطرحها البابا بنديكت هى "بشارة أمل بتفاهم متبادل".

وتوضح المحاضرة كيف يرى البابا الحوار الذى تحتاجه الحضارات المتدينة فى عالمنا، ومن بينها الإسلام لمعالجة الآثار السلبية التى ترتبت على "استبعاد ما هو مقدس من النطاق العقلى الشامل". وهذا ما يُقِرّه معظم علماء المسلمين. وهكذا فإن البابا فعل أمرين متناقضين؛ فهو استشهد بأقوال مستفزة للغاية، لكثير من المسلمين وفى مناخ قابل للإشتعال، كما أنه طرح ملاحظات عن الإسلام إيجابية بشكل غير معتاد عندما رأى الحقيقة فى المسيحية والإسلام معاً. وللأسف فإن العديد من وسائل الإعلام ركز على الجانب السلبى فقط، ولعب ذلك دوراً فى طرح عبارات تفتقر إلى السياق المناسب.

وقد كان للغضب الإسلامى ما يبرره، وطرح كثير من العلماء والمنظمات وجهات نظر منطقية تفسر هذا الغضب. ولكن، لسوء الحظ، فإن ردود فعل أخرى لم تكن طيبة، والعنف الذى تلا ذلك، فى بعض الأماكن، ونظريات المؤامرة التى تمت صياغتها يمكن أن تهدم الجسور وتقربنا من صدام الحضارات الذى لا يريده أى إنسان لديه ذرة من العقل. لكن هذه المحاضرة تبقى إشارة قوية أخرى إلى حاجة العالم الإسلامى والغرب، أكثر من أى وقت مضى، إلى ممارسة الحوار.

ومن المشاكل الرئيسية أن الإعلام والدارسين، بل وكثيراً من العلماء والقادة البارزين فى الغرب، لديهم قدرة محدودة على الوصول إلى معلومات سليمة وموثوق بها. ومن المدهش أن كثيراً من الكتب والمقالات التى تصدر فى الغرب عن العالم العربى والإسلامى تعتمد على مصادر غير عربية غالباً ما تفتقر إلى الدقة. وقد نشأ هذا عن فقر فى الدراسات التى تستند إلى مراجع عربية وافتقاد القدرة على قراءة النصوص العربية.

وقد عاش البابا وتعلم ودَرَّس فى الغرب، وهو مدرك بشكل جيد لتحولات الفكر فى الغرب كما هو واضح من محاضرته. ولأنه ابن الحضارة الغربية فلابد أنه، طوال حياته، تعرض لكثير من الأفكار أحادية الجانب، وربما الخاطئة، عن الإسلام. فهو لم يعش أبداً فى بلد مسلم، وليس خبيراً فى الشئون

الإسلامية أو فى تاريخ العلاقة بين الإسلام والمسيحية بالدرجة التى كان يمكن أن تجعله يقدم أطروحاته بحرص أكبر.
وبالطبع فلدى الفاتيكان عدد هائل من العلماء الممتازين الذين كان بوسعهم أن يزودوا البابا بالنصيحة التى كان من الممكن أن تساعده على تقديم أطروحاته بعناية أكبر. ويبدو أن هذا لم يحدث. وبالتالى، فقد تيسر لنا الإطلاع على الفهم الشخصى لبابا غربى متعلم قدم فى نص واحد تصريحاً إيجابياً غير عادى عن المسيحية والإسلام وما يحتويانه من صدق، وفى الوقت ذاته طرح صورة عن الإسلام هى بالتأكيد مشوهة ولكنها، أيضاً، نتيجة لكثير من المعلومات المغلوطة عن الإسلام التى تروج فى الغرب.

وهذا ما يحتاج إلى معالجة !! فلابد من الرد على المعلومات أحادية الجانب، التى تغذى التصورات النمطية السائدة، والتى تطرح دون خلفية كافية، والتى تنطوى حتى على تضليل، والرد عليها بمعلومات دقيقة ووضعها فى إطار يساعد على تصحيح الأفكار المغلوطة لدى الناس الذين نشأوا فى وسط ثقافى بالغ الإختلاف. وبوسع المسلمين والعرب أن يفعلوا الكثير فى هذا المجال.

هذا يتطلب جهد المسلمين والعرب الذين يفهمون العقلية الغربية والقادرين، من خلال الدراسات والمقالات التى يتم نشرها، على مساعدة الجمهور الغربى على التوصل إلى فهم أفضل. لكن عدد المسلمين والعرب القادرين على أن يفعلوا ذلك بطريقة مقنعة للجمهور الغربى هو عدد قليل جداً.
وهذه أحد الأسباب الرئيسية لنشأة الحاجة الملحة إلى حوار حقيقى، فلابد للمنتمين للثقافات المختلفة أن يبذلوا المزيد من الجهد ليفهم بعضهم بعضاً. ومن أفضل الطرق لتحقيق ذلك أن نعمل معاً لمعالجة مظاهر سوء الفهم والنظر فى الخلافات الفكرية وفى التقارير الإعلامية بإحترام كامل للمعتقدات الدينية القائمة.

وقد كان هذا هو السبب الذى دعانا لإطلاق مشروع لترجمة آلاف مؤلفة من مقالات الرأى العام التى ينشرها الإعلام العربى إلى الإنجليزية ونقل ما يهم العرب وما تعبر عنه وسائل الإعلام العربية إلى الرأى العام الغربى.

نحن بحاجة إلى معهد يجعل المراقبين الغربيين على دراية بوجهات النظر وبالمشاعر السائدة فى العالم الإسلامى، ليس بالسطحية التى يباشر بها الإعلام الغربى هذه المهمة، فى الغالب، ولكن بمزيد من التعمق.

وكما عبر أحد المراقبين، فإن السبب الحقيقى للغضب العارم الذى يجتاح العالم الإسلامى هو أن كثيراً من المسلمين يشعرون بأنهم مستهدفون بهجمات غربية. وقد ساهمت التدخلات الغربية، العسكرية وغير العسكرية، وأحداث كثيرة أخرى، فى تغذية هذه الشكوك. وهناك بالفعل ما يدعو المسلمين إلى الحذر ولكن على الإنسان أن يحذر من التسرع فى الإستجابة للشكوك فى النوايا السلبية للآخرين، لأن ذلك من شأنه أن ينسف إمكانية بناء الجسور.

بناء الجسور ممكن. وقد رأيت كيف أن مئات من الغربيين غيروا رأيهم فى العرب والإسلام بعد أن زاروا مصر وبعد أن تزودوا بالمعلومات من مصادر يثقون بها، ومن أشخاص أو منظمات يشعرون بالصلة التى تربطهم بها.

هناك ملايين من الناس من ذوى النوايا الطيبة فى الغرب يتعرضون للتضليل وتتبع مقالاتهم ومحاضراتهم عن معلومات مغلوطة. وهؤلاء هم الناس الذين يتعين علينا أن نسعى إلى إمدادهم بالمعلومات الدقيقة. نحن بحاجة إلى تطوير آليات من شأنها أن تحول دون تكرار وقوع إساءات غير مقصودة للإسلام ولغيره من الديانات لنحول بذلك دون وقوع صدام فعلى بين الحضارات.

وقد بذل صاحب السمو الملكى الأمير الأردنى حسن بن طلال جهوداً كبيرة من خلال محاضراته ومن خلال تأسيس المعهد الملكى الأردنى لدراسات الأديان وما قام به هذا المعهد من أنشطة. ومن خلال المؤتمر الأخير لدراسات الشرق الأوسط (WOCMES-2) فى عمان وغير ذلك من الأنشطة. وإنّى معجب بما يقوم به الأمير وكثيرون غيره من المشتغلين بالحوار بين الثقافات، ولكن يمكن القيام بالمزيد.

محاضرة البابا

وقع حوار القرن الرابع عشر الميلادى، الذى أشار إليه البابا، فى لحظة كانت الإمبراطورية البيزنطية فيها عرضة للخطر بسبب الجيوش العثمانية الزاحفة التى استولت على العاصمة البيزنطية "القسطنطينية" بعد ذلك بما لا يزيد عن نصف قرن فى العام ١٤٥٣. ومثل هذه الظروف لا تساعد على قيام حوار متوازن كما أنها تفسر اللغة المقتضبة التى استخدمها الإمبراطور البيزنطى.

ولا شك أن الحوار جدير بالإهتمام لأنه يساعدنا على أن نفهم كيف كان شعور المسيحيين فى تلك الأيام إزاء الإسلام. ولكن يجب أن لا يتوقع المرء أن يكون ذلك موضوعياً. وهناك العديد من الحوارات المشابهة التى دارت فى القرون الوسطى وكثير منها استهدف، فيما يبدو، أن يظهر للجمهور العريض تفوق وجهات نظر أحد الفرقاء على وجهات النظر الأخرى ، وهذا لا يجعل تلك الحوارات مصادر يستخدمها المرء، دون توضيح السياق الذى أحاط بها.

ويرفض البابا مبدأ نشر الإيمان بالسيف. ومعظم المسلمين والمسيحيين المعاصرين لا يختلفون حول هذه النقطة. وقد أشار بعد ذلك إلى الجهاد بطريقة تعكس سوء فهم شائع فى العالم الغربى، وهو ما يغضب المسلمين الذين يشعرون بالإهانة بسبب هذا التفسير المغلوط من جانب المؤلفين الغربيين الذين يكتبون عن الجهاد. ولهذا فإن أى كتابة أو حديث حول هذا الموضوع يجب أن يتسم بالحذر الشديد. [١]

ويؤكد البابا أن الإمبراطور كان يدرك مفهوم المسلمين عن الجهاد. وقد كان من الممكن أن تساعد هنا المصادر الإسلامية المعاصرة لتُفسر كيف استخدم الأتراك العثمانيون هذا المفهوم، فى تلك الأيام، لأن هذا كان يمكن أن يساعدنا على أن نفهم أفكار الإمبراطور حول هذه المسألة. ولا شك فى أن الإمبراطور لم يتأثر بالمعتقدات العثمانية المعاصرة له عن الجهاد فقط، ولم يكن يرد على هذه المعتقدات وحدها، ومن الممكن أنه كان متأثراً، أيضاً، بكتابات مسيحية سابقة يصعب اعتبارها محايدة عقب الحروب الصليبية وبعد طرد الصليبيين من بلاد الشام.

وهكذا فقد تعرض البابا لقضية بالغة الحساسية اعتماداً على مصدر واحد يعود إلى فترة مفعمة بالتوترات، وذلك المصدر هو الحوار كما حرره البروفيسور خورى. وكان يتعين عليه أو على مساعديه استخدام مجموعة أكثر تنوعاً من المصادر.

ويقرر البابا بنديكت أن "الإمبراطور لابد وأنه كان يعرف أن الآية رقم ٢٥٦ من سورة البقرة تقول: "لا إكراه فى الدين". ثم يضيف "حسبما يقول الخبراء فهذه من الآيات التى تعود إلى المرحلة المبكرة عندما كان محمد لا يزال بغير قوة ومعرضاً للخطر". ويقول علماء المسلمين إن هذا خطأ. وبعكس ما قاله البابا فقد نزلت هذه الآية فى المدينة عندما كان محمد فى مركز القوة لا الضعف. ولا نعرف الخبراء الذين استشارهم البابا بنديكت ولكنهم، بالتأكيد، لم يساعدوا البابا بمشورتهم.

وناقش البابا بنديكت "العلاقة بين الدين والعنف بصفة عامة" واستشهد بما قاله الإمبراطور البيزنطى من أن الإسلام انتشر بالسيف. وقد وجه علماء المسلمين انتقاداً شديداً للبابا بسبب هذا الإقتباس المستفز. ووصف البابا فى محاضرته ما قاله الإمبراطور بأنه جاء:
“In erstaunlich schroffer, uns überraschend schroffer Form,”
وهو يعنى بالإنجليزية:
“Astoundingly gruff” and “for us (a) surprisingly harsh form”
أى "غليظ بشكل محير" و "بالنسبة لنا صيغة قاسية بشكل يدعو للدهشة". لكن المترجم أخطأ، وأخطاء الترجمة عديدة ومتكررة هنا، عندما ترجم النص الألمانى إلى "اقتضاب مدهش" وهو تعبير أضعف بكثير من الأصل الألمانى. وبين هذا التعبير، أيضاً، أن البابا لا يؤيد ما قاله الإمبراطور عن الإسلام. وقد أعلن بعد ذلك، على الملأ، أن هذا الاقتباس لا يعكس آراؤه الشخصية وأنه شديد الأسف لأن هذه الإقتباسات أغضبت الكثير من المسلمين فى جميع أنحاء العالم. واعتبر المنتدى الإسلامى العالمى للحوار أن البابا تراجع بذلك عما قاله، فقد رأى المنتدى فى المبررات التى قدمها البابا درجة من الاعتذار.

ويعتقد المنتدى أن المحاضرة تعكس نقصاً فى معرفة البابا بالإسلام. ويبدو أن هذه الخلاصة مبررة على اعتبار أن البابا، فى هذه المحاضرة وفى مناسبات سابقة، أظهر ميلاً للحوار مع الإسلام، ليس إلى المدى الذى يود أن يصل إليه الآخرون بالحوار. وقد كان يعد العدة، أيضاً، لزيارة رسمية لتركيا، وليست هذه إشارة إلى معارضة بابوية للحوار.

وقد كان من الممكن تجنب المشاكل لو أن البابا استشار الخبراء الذين يعرفون العالم الإسلامى. وأقل ما كان يمكن أن يفعله لم يكن ليقتصر على إظهار مخالفته لكلمات مانويل الثانى، ولكن أيضاً الإشارة إلى دعوات من التسامح والسلام والعدالة والرحمة صدرت عن مفكرين إسلاميين قبل القرن الرابع عشر وتم تجاهلها فى الحوار المشار إليه.

وقد كان هدف البابا بنديكت واضحاً: العنف مناقض لطبيعة الرب والإيمان لا يمكن نشره بالسيف. وهذه تعاليم الإسلام والمسيحية لكن القادة المسلمين والمسيحيين، على السواء، خرقوا هذه التعاليم واستخدموا الدين لأغراضهم السياسية. وقد وقع استغلال الدين لأغراض سياسية، لسوء الحظ، فى كل الديانات. ولا يجب على المرء أن يلوم هذه الديانات، بل علينا أن نلوم الحكام الذين فعلوا ذلك بنا.

ويوضح البابا السبب فى أن العنف لا يتماشى مع طبيعة الرب على أساس أن "التصرف بغير مقتضى العقل مناقض لطبيعة الرب". ثم يستشهد البابا بما قاله العالم الأندلسى ابن حزم الذى قال "إن الله تعالى على كل ما هو بشرى حتى ان البشر يعجزون عن فهم العقلانية الإلهية ". وهذه الصياغة توحى بصعوبة التوحد بين الإسلام والعقل. ويرفض العلماء المسلمون هذا رفضاً شديداً. فبدلاً من تسليط الضوء على عالم أندلسى واحد، لا يمثل التيار الرئيسى للفكر الإسلامى، كان أحرى بالبابا أن يتكلم عن مساهمة الأندلس المسلمة فى تطور أوروبا.

وعند هذه النقطة من محاضرته تسائل البابا بنديكت؛ "هل الإعتقاد بأن الخروج على سلطات العقل مناقض لطبيعة الرب هو مجرد فكرة إغريقية أم أنه أمر صحيح دائماً وبشكل جوهرى؟ واعتقد أن بوسعنا أن نرى هذا التناغم العميق بين ما هو "تفكير" إغريقى، بأفضل ما تعنيه الكلمة، وبين مفهوم الكتاب المقدس للإيمان بالله". وتفسير كلمة "Logos" فى إنجيل يوحنا يمثل نقطة مركزية فى حوار البابا بنديكت. فهو يستخدم نقاطاً مرجعية عديدة من الكتاب المقدس لشرح "الضرورة الجوهرية للربط بين الإيمان فى الكتاب المقدس والإجتهاد الإغريقى". ولم تكن هذه الآراء لتؤثر على العلاقات الإسلامية-المسيحية لو أنها طُرحت بمعزل عن التعليق على الحوار بين الإمبراطور البيزنطى ومحاوره الفارسى.

والحجج التى طرحها البابا بنديكت لصالح الربط بين الإيمان والعقل هى بالتأكيد مهمة فى أوروبا ذات الطابع العلمانى القوى. فالباباوات يختارون أسمائهم، واختيار هذا البابا لاسم بنديكت لم يأت اعتباطاً لأن بنديكت (حوالى ٤٨٠ – ٥٤٧ ميلادية) هو مؤسس الرهبنة الغربية وهو أيضاً القديس الذى يرعى أوروبا. ومعروف على البابا بنديكت السادس عشر أنه شديد الإنزعاج من تحول الأوروبيين عن الكنيسة وتبنيهم فلسفات أخرى عديدة عن الحياة، هى فى غالبها مادية. وبالمناسبة، فقد أثرت على كثير من مسلمى أوروبا أيضاً، وهم مسلمون حافظوا على إسلامهم من حيث الاسم فقط، لكنهم فقدوا، مثل كثير من مسيحيى أوروبا، كثيراً من إيمانهم بتعاليم موروثاتهم الدينية.

وترتكز الحجج التى يسوقها أولئك الذين انصرفوا عن الديانة المسيحية، إلى حد كبير، على الاعتقاد بأن الإيمان والعقل لا يمكن أن يتحدا. وليس البابا بنديكت وحده هو الذى يقول بإمكانية الربط بين الإيمان والعقل، ولكن كثيراً من المسيحيين المحافظين، ومن كل المذاهب، سبقوه إلى ذلك.

ويرى البابا أن ارتباط الإيمان المسيحى بالبحث الفلسفى الإغريقى حاسم، تاريخياً، بالنسبة لشخصية أوروبية وهى شخصية من المؤكد أنه يريد أن يحافظ عليها ولهذا فهو يعارض الدعوات إلى "تنقية المسيحية من الهيلينية" كما ظهرت فى اللاهوت الليبرالى فى القرنين التاسع عشر والعشرين حيث يتم فصل الإيمان عن العلم أو العقل. ويشير البابا إلى أيام كان طالباً عندما "كان هذا البرنامج بالغ التأثير فى اللاهوت الكاثوليكى أيضاً".

وبتعبير آخر، فإن مسألة الإيمان والعقل هى مسألة انكب البابا على معالجتها طوال حياته ! وهذه الإشارة الشخصية توضح، أيضاً، أن البابا لم يكن يقصد الإسلام، بل كان يعالج قضية الفصل بين الإيمان والعقل. ألا يوافق معظم علماء المسلمين على أن الفصل بين الإيمان والعقل غير ممكن؟ ألا يمكن لأطروحات البابا، بهذه الكيفية، أن تكون جديرة باهتمام المسلمين الذين يعيشون فى أوروبا العلمانية؟

ويحذر البابا من أن فصل الإيمان عن العقل يترتب عليه أن "يصبح "الضمير الفردى" الحكم الوحيد الذى يقرر ما هو أخلاقى" و "أن تفقد الأخلاق والدين القدرة على خلق مجتمع وتصبح مسألة فردية خالصة". ويعتقد البابا أن هذا "وضع خطير على الإنسانية كما نرى من الإختلالات المزعجة التى تطرأ على الدين وعلى العقل، بالضرورة، عندما يختزل العقل لدرجة أن لا تدخل فى نطاقه أمور الدين والأخلاق، على اعتبار أن محاولات تأسيس قيم أخلاقية استناداً إلى أحكام التطور أو استنباطها من علم النفس وعلم الإجتماع، ببساطة، يثبت قصورها فى النهاية".

ثم يتوصل البابا بنديكت إلى خلاصة مهمة تعرضت، لسوء الحظ، لإهمال بالغ فى الجدل الذى أعقب استشهاده غير الموفق بالإمبراطور مانويل الثانى:
"بهذه الطريقة وحدها نصبح قادرين على ذلك الحوار الحقيقى بين الثقافات والأديان الذى نحن أحوج ما نكون إليه اليوم". وبداية، فإن الحوار بين الثقافات يحتاج إلى الإعتراف بأن العقل والإيمان لا يستبعد أحدهما الآخر. ألا يوافق معظم علماء المسلمين على ذلك؟

ويقول البابا بنديكت "ترى ثقافات العالم المتدينة بعمق هذا الاستبعاد للمقدس من شمولية العقل كهجوم على من يؤمنون به أشد الإيمان. فالعقل الذى يصم أذنيه عن المقدس والذى ينزل بالدين إلى مستوى الثقافة الفرعية هو عقل غير قادر على الدخول إلى حوار الحضارات". و"الإنصات إلى التجارب والرؤى العظيمة للموروثات الدينية الإنسانية، ولموروثات العقيدة المسيحية على وجه الخصوص، هو مصدر المعرفة، وتجاهلها يعد حجراً غير مقبول على أسماعنا واستجاباتنا".

والبابا يتكلم عن التجارب والرؤى العظيمة للموروثات الدينية بصيغة الجمع، وهذا يشمل الإسلام بشكل لا لبس فيه. وبالطبع فهو يتحدث عن العقيدة المسيحية، على وجه التخصيص ولكن ألا يتكلم العالم الإسلامى عن العقيدة الإسلامية على وجه التخصيص؟

وقد اتهُم البابا بتصوير الإسلام تصويراً خاطئاً، سواء فى تاريخ الإسلام أو تعاليمه. وأنا أؤمن بأن هذا صحيح لسوء الحظ. واتهَم البعض البابا أيضاً بأن لديه أجندة لتشويه الإسلام. وهذا ما لا أؤمن بصحته. وقد أشار البروفيسور هانز كونج، الذى تكررت خلافاته مع الكاردينال راتزنجر قبل أن يصبح بابا، إلى أن " البابا لم يكن مدركاً لما ينطوى عليه كلامه، بكل بساطة". ومن المؤكد أن هناك الكثير من المعلومات المغلوطة التى راجت عن الإسلام فى أوروبا والتى أثَّرت، حتى على قيادات رئيسية مثل البابا.

وهذه الواقعة غير الموفقة تظهر أن الحوار والتفاهم المتبادل مطلوباً أكثر من أى وقت مضى.[٢] ونحن بحاجة، بالتأكيد، إلى معهد للتفاهم بين العرب والغرب يساهم فيه الناس من كافة الديانات بمساواة كاملة واحترام كامل إزاء بعضهم البعض. لا نحتاج لتعميق الهوة بين العالم العربى والغرب، ولا يجب أن نستسلم لأولئك الذين يحبون أن يروا تلك الهوة تُعمَّق بل يجب أن نتعاون معاً لمعالجة سوء الفهم بطريقة إيجابية.

[١] سوف يكون أمراً جديراً بالاهتمام لو أن أحداً استطاع أن يدرس ردود الفعل الغاضبة العديدة فى الإعلام العربى على الإستخدام الغربى، أو ما يتصوره البعض استخداماً غربياً، لتعبير الجهاد. وفى أرشيف "تقرير العرب والغرب" مجموعة لا بأس بها من المواد ذات الصلة التى تغطى السنوات من ١٩٩٧ إلى اليوم. وقد يساعد أمراً كهذا القراء الغربيين على التوصل إلى فهم صحيح إلى حساسية الاستعمال الخاطىء لتعبير الجهاد.

[٢] أسفرت محاضرة البابا، بالفعل، عن عدد من ردود الفعل الجديرة بالاهتمام من قبل شخصيات بارزة رأت فيها إشارة قوية إلى ضرورة الحوار.

* يتوجه كاتب هذه المقالة بشكره إلى الأستاذ الدكتور حسن وجيه الذى زوده بمعلومات عن التعاليم الإسلامية فى حدود ما تستدعيه مناقشة المحاضرة التى ألقاها البابا بنديكت السادس عشر.